الاسلام .. في البلاد الحمراء

خمس جمهوريات اسلامية في الاتحاد السوفياتي

الحجاج يرتدون عمامة ذهبية اللون

لماذا تشيد البنايات على اعمدة اسطوانية دائرية

هذه هي الحلقة الثانية من مقالات ادوار سابليه المحرر السياسي لجريدة « ليموند » الفرنسية عن الاسلام في الاتحاد السوفياتي .. المقالات التي شغلت مجلة « لايف » الامريكية في الحصول على حق نشرها .. ونجح احمد طلعت مدير مكتب (كل شيء) في القاهرة في الحصول على حق ترجمها الى اللغة العربية .. ان سابليه يروي في هذا الجزء قصة زيارته لاول مدينة اسلامية .

منذ عدة سنوات كانت الرحلة بالسكة الحديدية تستغرق خمسة ايام بين موسكو وطشقند ، اما اليوم فلا تستغرق هذه الرحلة بالطائرات التي تقوم يوميا ثلاث مرات اكثر من ساعات قليلة .

فاذا تجاوزت الطائرة جبال « الاورال » راحت تحلق على ارتفاع بسيط فوق اراض قاحلة جرداء يكاد المسافر لا يرى الخضرة فيها الا نادرا ، وكلما اقتربت الطائرة من ارض آسيا كلما وقعت العين على مروج نضرة ومراع خصيبة ، تلكم هي بمدينة طشقند عاصمة آسيا الوسطى وسابع كبريات المدن السوفييتية .

هذه المدينة حينما غزاها الجنرال تشيرنايف باسم قيصر روسيا عام ١٨٦٥ ، كانت صغيرة متنوية الطرقات ، معظم مبانيها من اللبن ، ثم ما لبث المستعمر ان بنى بجانبها مدينة جديدة تضم الادارات الحكومية والثكنات العسكرية على غرار غيرها من مدن روسيا ، وقد شقت طرقاتها الرئيسية على صورة مروحة تبدأ كلها من الميدان الكبير وتترامى الى خارج المدينة لصد اى عدوان يأتيها من الخارج !

اما اليوم فقد اختفت القلعة الشماء التي كانت تحمي العاصمة ، فحل مكانها عدد من المباني الضخمة اقيمت على احدث طراز ، وتتخللها الطرقات المستقيمة ، والحدائق العامة ، ومجاري المياه النظيفة التي تنقل الرائي من جو الصحراء المقيض الى مغانين الطبيعة الخضراء اليانعة .

ويوجد في الشارع الرئيسي حانوت كبير يعرض الازياء الاوروبية الحديثة ، واخر لبيع المواد الغذائية الطازجة والمحفوظة ، ثم المكتبة ، ومحال الخياطين المتناثرة هنا وهناك والتي لا تعرف التهافت ولا صفوف المشترين كما هو الحال في موسكو .

هذا ولا يحس المرء في مدينة طشقند نفس الاحساس الذي يساوره في مدينة كالعاصمة السوفييتية من جراء تزاحم السكان واختلاط الاسر في مسكن واحد ، بل ان الطراز السائد في المباني هنا يتكون من طابق واحد تحيط به حديقة صغيرة ، ولعل اللجوء الى هذا الطراز راجع الى طبيعة الارض نفسها ، اذ ان هذه الاراضي داخلة ضمن منطقة الزلازل التي تحدث عادة بمعدل يتراوح بين ثمان وعشر مرات سنويا !..

ولاعجب ، فقد ورد في التاريخ ان مدينة طشقند القديمة قد دمرها زلزال عنيف اتى عليها منذ اثنين وعشرين قرنا .

ولعل هذا ايضا ما حدا بالسلطات السوفييتية الى اتباع اسلوب خاص في اقامة المباني الحكومية على اعمدة اسطوانية قواعدها دائرية ضخمة لمقاومة فعل الهزات العنيفة .

مدينة اسلامية

يسير المسافر في شارع البشير نافار الكبير ، فيرى على جانبيه حدائق غناء منسقة ثم تطالعه مئذنة جامع قديم فيحس بانه مقبل على بلد يدين اهله بالاسلام ولا يزالون يعيشون في قرونهم الاولى .

هنا يرى الطرقات الضيقة الملتوية والبيوت الصغيرة النظيفة المبنية من اللبن ، والحوانيت المتلاصقة والنساء والمعمرين الجالسين القرفصاء تمتد ظهورهم الى جدران البيوت وقد عرض كل منهم بضاعته من لب القرع المقلي ، او اللبن الزبادي المبادلة بزوج من الاحذية او قبعة من فش بنما او قطعة من جلد الوعول ، تماما كما يشاهد في اسواق بغداد او مراكش .

ولباس النساء الوطنيات يتكون من سروال حريري وقميص واسع ذي لون زاه وقبعة مطرزة مربعة الشكل ، والرجال يرتدون سروالا ابيض من القطن ينتفخ حول الفخذين وقميصا يهبط الى حد الركبتين ، اما غطاء الراس فعبارة عن عمامة يطلقون عليها اسم « تشالما » وقد فقدت هذه العمامة دلالتها القديمة اذ انها كانت وقفا على رجال الدين او الحجاج العائدين من بيت الله الحرام ، على ان العمامة تكون ذهبية اللون للحجاج عادة ، وخضراء للشريف الذي ينحدر من الدوحة النبوية ، هذا ويلبس الرجال احذية من الجلد الرفيق الذي يرتفع الى الركبتين ، ولعلها اثر من اثار اسلافهم فرسان المغول وسادة سهول الاستيب القدماء .

على ان الغالبية العظمى من رجال ازبكستان ونسائها يلبسون اللباس الاوروبي على غرار الروس او الاوكرانيين .

ولقد كان همي الاكبر من هذه الرحلة ان اتحرى وان اري بعيني راسي « البارنجا » او العباءة الطويلة التي تخفي جسد المرأة من اعلى الراس الى اخمص القدم وغطاء الوجه المصنوع من شعر معرفة الحصان « التاتشوان » والذي يستر الخلقة عن العيون الفضولية النهمة ، واقول الحق انني لم التق الا بعدد قليل من هؤلاء النساء اللواتي يرتدين اللباس القديم ، وكانت مشية اكثرهن تنم عن تقدم في العمر .

عملية الاندماج

كان هؤلاء السكان يسيرون على الاقدام ، او يستخدمون الحمير في تنقلاتهم ، فاذا ما التقوا بغريب عن الديار ، ارتسمت على ثغورهم ابتسامة حلوة وتجدهم في هذا البلد لا فرق بينهم وبين الروس البادة : نفس لباس التلاميذ ، ونفس لباس طلاب الجامعة ، ونفس لباس العمال ، ولا عجب فان المصانع ومقار الحزب الشيوعي والنقابات والنوادي تعتبر بمثابة بوتقة تنصهر فيها وتزول كل تفرقة عنصرية .

وجمهورية « ازبكستان » الحديثة قد نشأت حسب خطة علمية موضوعة شأنها في ذلك شأن بقية الجمهوريات الاسيوية ولها في نظر موسكو اهمية قصوى ، فقد كان اهل البلاد سادة اسيا الوسطى قبل ان يستولي عليها الروس منذ اقل من قرن من الزمان ، وعلى ذلك فان لهؤلاء القوم تقاليد في حكم البلاد وهم يعتبرون ايضا من أهم الشعوب التي يحكمها الروس ، كما ان اراضيهم تتاخم حدود اربع جمهوريات اسلامية اخرى في اسيا الوسطى فضلا عن افغانستان .

ولقد نشأت هناك صناعة جبارة ، وآية ذلك ان جمهورية ازبكستان تعتبر ثالثة جمهوريات الاتحاد السوفييتي في صناعة النسيج وانتاج القطن ، فضلا عن ان طشقند تعتبر حلقة هامة في مواصلات الاتحاد السوفييتي الاسلامية بينما كان عدد المتعلمين حتى عام ١٩١٣ لا يزيد عن ٢ بالمئة من مجموع عدد السكان ، ونشأت علاوة على ذلك جامعة اهلية ، وفي هذا دلالة خاصة على ان جمهورية ازبكستان تتمتع بحكم ذاتي ، مما حدا بالسلطات المركزية الى انشاء مؤسسة تابعة لمعهد علوم موسكو بمدينة طشقند ، ثم استقل المعهد المذكور عن امه الاصلية في هذه السنة .

وفي طشقند مسرح اهلي ودار للاوبرا ، تقوم منهما فرق اهلية بمسرحيات غنائية موسيقية ، فضلا عن الاغاني الشعبية التي وضعت على اسس جديدة عصرية .

ولكل من الجمهوريات الاسلامية جهازها الحكومي الخاص ومجلس سوفييتي اعلى ، اي برلمان يجلس فيه نواب مسلمون وروس على السواء .

ارض السلام

في الواقع ان الكرملين هو الذي يحكم الجمهوريات الاسلامية الاسيوية ، غير ان مظاهر المساواة بين السكان الاصليين وبين الروس محفوظة ، فالشعوب تنتخب ممثليها لدى مجلس السوفييت الاعلى بنسبة واحد عن كل ثلاثمئة الف من السكان ، اما مجلس الجنسيات او العناصر فان فيه لكل جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي الست عشر (٢٥ مندوبا)

بيد ان السلطات الرئيسية مركزة بطبيعة الحال في ايدي الحكومة الفيدرالية المركزية ، ومشروعات السنوات الخمس توضع عادة لتشمل جميع جمهوريات الاتحاد على السواء ويشرف اصحاب الامر في ادارة المشروع على اقتصاديات البلاد كما تشرف الحكومة المركزية في موسكو على شئون الجيش والعلاقات الخارجية .

وكانت السلطة القضائية مركزة حتى وقت قريب في ايدي الحكومة المركزية ، الا انه حدث في شهر مايو ١٩٥٦ ان حلت هيئة النيابة العامة المركزية واصبحت كل جمهورية تتولى السلطة القضائية داخل حدود اراضيها ، والمساواة مكفولة من ناحية المبدأ نحو جميع الرعايا السوفييت الا انه بلاحظ من الوجهة العملية ان كفة المزايا اكثر رجحانا بالنسبة للرعايا الروس .

والمفهوم ان هؤلاء الرعايا الروس لا يشعرون باية غضاضة او قلق اذا ما ارتقى المسلمون في اية ناحية من نواحي النشاط سلم النجاح ، او اذا بلغوا الدرجات ، بل هذا يسعد الروس على العكس ، اقلا يعد هذا دليلا واضحا على ان تؤمن بالنظام الجديد وتتقبله شاكرة ؟

ولكن اليس في ثنايا المستقبل بعض الخطر من هذا النظام ؟

يقول الروس انه حتى يحين ذلك الوقت ستكون الثقافة الروسية قد طغت على غيرها من الثقافات الوطنية المحدودة النطاق وتكون صفوف الشيوعيين قد تضخمت والديانات نفسها قد اختفت وزال اثرها من النفوس .

ذلك على الاقل هو الامل الذي يداعب خيالات الروس وهو الاساس الذي يبنون عليه سياستهم نحو رعاياهم المسلمين في اسيا .

احمد طلعت